

الفصل الرابع

الإسلام دين ودولة

من المسلمات السائدة أن الاسلام دين ودنيا معا.
المسلمون والمستشرقون والمطلعون بما فيه الكفاية على القرآن يقطعون بهذا الأمر. وليس من يخالفهم فيه سوى المكابرين أو الذين يجهدون طاقتهم للخروج من أحكام القرآن، متبعين ما يناقضه أو ينفيه، مختارين إتجاها آخر في الحياة يقوم على أسس أخرى ومرتكزات مختلفة.

والسبب الجوهرى في الارتباط العضوي بين الشأنين الديني والدينيوي، وفي رفض الاسلام الفصل بينهما، او حتى في إقامة نوع من الاستقلالية بين حقليهما، هو أن العبادات وأعمال الانسان الدنيوية كل لا تجزؤ فيه. فالأعمال الدنيوية طريق الآخرة. فكيف يفصل الطريق عن محجته؟ أليست المحجة هي نهاية الطريق؟ أليس الطريق هو المحجة بالقوة؟

إن من يسير بموجب أوامر الله ونواهيهِ المدوّنة في "الكتاب"، أي إن من يحقق أحكام الشريعة كما أنزلت على الرسول، يكون قد اتقى الله واجتنب المعصية والتزم صالح الأخلاق والأعمال فاكتسب الجنة. فلا نستغرب، بالتالي، إذا ما أفاض القرآن بمثل ما أفاض به من كلام عن الحياة الدنيا. إنها موضوع جوهرى فيه وتكاد تشغل الحيز الأكبر منه.

والحركة جدلية في الإسلام بين موضوعي الدين والدنيا. فاعتماد الترداد في الوعيد والعذاب في النار، إنما هو وازع للإنسان يزرعه عن الشر والإثم. وارتداع الإنسان في هذه الحياة الدنيا عن كل ما هو حرام وقيامه بالأعمال الصالحات إنما هو سبيل الوصول الى الجنة والخلود فيها.

ومن أجل تهيئة الظروف والأجواء كافة التي تتيح للمسلم أن يحيا إسلامه كاملا، لا بدّ من أن تكون السلطة السياسية أداة الدين، لا بل جزءا منه. وهكذا نفهم لماذا الاسلام دين ودنيا وسياسة واجتماع وأخلاق ونظام، بقدر ما هو دين وإيمان و عقيدة وآخرة.

الدولة فى عهد النبي وبعده

إن النبي مارس، فعليا وعمليا، مهام الدولة والسلطان. فهو الحاكم والقاضي والقائد الحربى والإدارى والإجرائى...

غير انه فى سلوكه كله لم يكن الا "المنقذ" لإرادة الله. والله وحده هو المشترع. "إنّا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله... (النساء 105). "وأن أحكم بينهم بما أنزل الله... (المائدة 49). "ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعملون" (الجاثية 18)

والدولة الإسلامية ليست محصورة فى عهد النبي. إنما مستمرة أبدا. وإن ما أقره القرآن بهذا الشأن مطلق وغير محدد بزمن. وهو يلزم المسلمين بإقامة الحكم الإسلامى وممارسة مختلف شؤونه أينما كانوا وحيثما وجدوا. "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا" (النساء 59).

"ولو رتّوه الى الرسول والى اولى الامر منهم لعلمة الذين يستنبطونه منهم" (النساء 83). "ومن يطع الرسول فقد أطاع الله" (النساء 80).

ومن المعلوم ان طاعة الله تأتي عن طريق حفظ وصاياه والالتزام بأوامره ونواهيه. هذه الوصايا والأوامر والنواهي واردة مفصلة دقيقة في القرآن. وطاعة النبي تكون بالنزول عند أحكامه وتنفيذها وقبول شروحه للعقيدة وتنفيذ توصياته واتخاذها قدوة. وكل ذلك وارد في الأحاديث.

أما أولو الأمر فهم، كما يقول الشيخ حسن بن محمد مخلوف، "أمراء الحق وولاية العدل من المسلمين أو العلماء المجتهدين"¹ والقول الفصل في وضع حدّ لأي خلاف يقع فهو الله (في القرآن) والرسول (في الأحاديث). فالقرآن والأحاديث معيارا للإيمان والأحكام.

وقد حذر القرآن المسلمين من الخروج على أحكامه بعد موت النبي، وحثهم على متابعة الطريق. "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين" (آل عمران 144).

ويقينا من المسلمين بوجوب الاستمرار في الحكم بموجب الشريعة الإسلامية، فقد سارعوا بعد موت النبي وانتخبوا خليفة له. وهكذا...

ورئيس المسلمين لا يكون إلا مسلمًا: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". فلفظة "منكم" واضحة كل الوضوح. فهي تمنع المسلمين من الخضوع لغير المسلم.

وعلي عبد الرازق نفسه – وهو من هو في مجال محاربة النظرية الداعية الى الخلافة في الاسلام والى المزج بين الاسلام كرسالة دينية ووحدة المسلمين السياسية الدنيوية – لم يتمكن من أن ينفي على نحو قاطع عن الآيتين 59 و 83 من سورة النساء المذكورتين أعلاه أنهما "... تدلان على أن للمسلمين قوما منهم ترجع اليهم الأمور"².

والقرآن شدّد كثيرا على هذا الأمر. وأكثر من ذلك. لقد منع القرآن المسلمين من موالاته غير المسلمين وموادتهم، سواء أكانوا مشركين أو كتابيين، أقارب أو أبعاد، وهما كانت البواعث والظروف والاعتبارات.

"لا يتخذ المؤمنون الكافرون أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير" (آل عمران 28). ويلاحظ أن الآية تسمح للمسلم بالتظاهر بقبول تولية غير المسلم إذا كانت ظروف قاهرة تفرض ذلك. فالتقية، إذا، ليست محصورة بمذهب إسلامي دون آخر، بل هي وسيلة نصح الله بها حيث لا مجال لسواها.

"يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين" (المائدة 51). يقول الشيخ مخلوف: "نهى الله المؤمنين أن يتخذ أحد منهم أحدا من اليهود والنصارى وليا

¹ مخلوف، ج1، ص 155

² علي عبد الرازق، الاسلام وأصول الحكم، مطبعة مصر، سنة 1925م. ورد هذا النص في الصفحة 142 من مجلة "الطليعة" المصرية، العدد 11، السنة السابعة، نوفمبر 1971م، حيث ثبت كتاب "الاسلام وأصول الحكم" بنصه الكامل في باب "وثائق".

ونصيرا، أي لا تصافوهم مصافاة الأحياب ولا تستنصروا بهم، فإنهم جميعا يد واحدة عليكم، ييغونكم الغوائل ويتربصون بكم الدوائر. فكيف يتوهم بينكم وبينهم موالاتة؟³

القوتلى على حق

يو نشر حسين القوتلى، المدير العام لدار الإفتاء، مقاله الشهير⁴، قامت قيامة المسيحيين عليه، بينما هو لم يقل سوى الحقيقة المجردة.
قال القوتلى:

"هناك موقف واضح في الاسلام هو أن المسلم لا يمكن أن يقف من الدولة موقف اللامبالي، وبالتالي لا يمكن أن يكون موقفه من الحاكم والحكم موقفا مائعا يرضى بأنصاف الحلول. فإما أن يكون الحاكم مسلما والحكم إسلاميا فيرضى عنه ويؤيده، وإما أن يكون الحاكم غير مسلم والحكم غير إسلامي فيرفضه ويعارضه ويعمل على إغائه، باللين أو بالقوة، بالعلن أو بالسر.

"هذا موقف واضح، لأنه موقف مبدئي هو في أساس الإسلام، واستطرادا، هو في أساس عقيدة المسلم. وإن أي تنازل عن إسلامه ومعتقده، ذلك أن إقامة الدولة، كما يقول مفكرو الاسلام، والاضطلاع بالحكم والسلطة جزء ضروري من الإسلام لا يقوم إسلام المسلمين إلا به.

"إن ذلك يعود الى سبب منطقي هو أن الإسلام نظام كامل، وموقف شامل، يضع الأسس والمبادئ لمواقف الإنسان كلها من الله والكون والإنسان. ولما كانت الدولة مؤسسة خاصة "بالإنسان" فلقد كان للإسلام فيها رأي وموقف، ذلك أن الدولة هي أساس الممارسات الإجتماعية والفردية تخطط لها وتوجهها وتسوسها متأثرة في ذلك بمعتقدات الحكام وأنظمة الحكم. وعليه فإنه بمقدار ما تكون الدولة الإسلامية تكون الرعية مسلمة ومحافضة على دينها، ممارسة لمعاملاتها وعباداتها، مراعية لحقوق الله وأحكامه. والعكس صحيح.

"المسألة في الواقع ليست مسألة تعصب أو تنعير طائفي... المسألة بكل بساطة "أن هذا هو الإسلام". والمسلمون لم يأتوا بهذا الدين من بيت أبيهم ليغيروا فيه أو يبدلوا منه، وإنما هم يعتقدون بأنه أنزل على نبيهم هكذا دينا ودولة، للفرد والمجتمع، فهذه هي سنة الله "ولن تجد لسنة الله تبديلا".

"كذلك الأمر على صعيد العقيدة، فإن الإسلام يرى أنه لا يمكن ممارسة العقيدة دون الحكم، وإذا كانت العقيدة مجموعة من القيم الروحية والمثل الأخلاقية يتوجه بها المسلم في نظرتة الى الله وفي علاقته بالكون والانسان، فإن معنى ذلك أنه ينبغي أن تكون لديه الوسيلة "السياسية" لتمكين هذه القيم والمثل في مجتمعه، لتتمكن في نفسه. وهنا يأتي دور "الإعلام الاسلامي" و"الاقتصاد الاسلامي" و"التربوية الاسلامية" و"الجهاد الاسلامي"... أي الدولة الاسلامية التي من دونها لا تتم عقيدة المسلم. وكذلك الحال على صعيد الأحكام، وأعني أحكام الحدود بشكل خاص، كحدود: قطع يد السارق ورجم الزاني وقتل القاتل. وعلى صعيد الفرائض، كفرضة

³ مخلوف، ج1، ص 196

⁴ جريدة "السفير" البيروتية، تاريخ 18 آب 1975

الزكاة وفريضة الجهاد، فهذه الحدود والفرائض لا يمكن أن تستقيم كلياً إلا في ظل دولة الإسلام وحكم المسلمين!".
وأكثر من ذلك.

فإن من واجب المسلمين الجهاد من أجل مساعدة إخوانهم في الدين. "وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً" (النساء 75). فهل يكون هذا "الواجب" من الأسباب التي جعلت المسلمين "العرب" و"غير العرب" طرفاً مباشراً في الحرب ضد المسيحيين في لبنان، منذ العام 1975، ومن أجل إقامة حكم إسلامي فيه؟

ميزانان ومكيالان

في ضوء ما ورد، نفهم لماذا انفصل مسلمو الهند وأنشأوا دولة "الباكستان"، ولماذا يصرّ القبارصة الأتراك على رفض الحاكم القبرصي اليوناني (خصوصاً يوم كان رئيس قبرص مطراناً!!!) وعلى الانفصال عن القبارصة اليونان، أو، على الأقل، إقامة حكم ذاتي لهم في الجزيرة.

كذلك نفهم موقف مسلمي الفيليبين الذين تساعدهم ليبيا من أجل الاستقلال، أو على الأقل، أيضاً، ولربما مرحلياً، لإقامة حكم ذاتي لهم.

وكذلك نفهم موقف مسلمي إرترية في إثيوبيا. فهم يطالبون بإنشاء دولة مستقلة لهم. والعالم العربي الإسلامي يشد أزركم.

وما يجوز لمسلمي قبرص ومسلمي الفيليبين ومسلمي إرترية لم يُجزّ لمسيحيي بيافرا في نيجيريا ولا لمسيحيي جنوب السودان. فمسيحيو بيافرا الذين طالبوا بالاستقلال وحاربوا من أجله هم انفصاليون، يجب محاربتهم حتى إخضاعهم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، استعمل مسلمو نيجيريا قائداً عسكرياً مسيحياً، ثم انقلبوا عليه بعد أن تحققت الغاية من استعماله.

وإذ طالب مسيحيو لبنان بنظام كونفدرالي أو فدرالي أو كانتوني أو بلامركية واسعة للبقاء على وحدة لبنان في حدوده الدولية، والتقليل من عناصر الصدام والاصطدام فيما بين اللبنانيين، فهم "إنعزاليون"⁵ و"انفصاليون"⁶ و"تقسيميون". لماذا؟ لأن في ظنّ مسلمي لبنان أنهم أكثرية عددية. وفي موضوع الأكثرية والأقلية يقول الدكتور عمر فروخ: "ويوم يقول النصارى إنهم عرب ويتصرفون كعرب، يصبحون عندئذ مثلاً. ولكن عليهم أن يتصرفوا كأقلية بالمعنى الديمقراطي. تماماً كما يتصرف البروتستانت كأقلية في فرنسا. ممثل الأقلية في انكلترا مثلاً لا يستطيع

⁵ لم يطلق المسلمون لفظة إنعزالي إلا على المسيحيين اللبنانيين الذين يرفضون أن يكونوا أهل ذمة. أما المسيحي الراضي بذلك (أو الذي يخيل اليهم أنه راض بذلك) فليس إنعزالياً.

⁶ "الانفصاليون" لفظة أطلقت على المسيحيين اللبنانيين الذين رفضوا أو يرفضون الدخول في وحدة سورية أو وحدة عربية. أما دعاة الوحدة فكانوا يسمون "الاتصاليين".

أبداً أن يصير ملكاً. فمسألة مكانة النصارى لها وجهان: وجه ديني ووجه سياسي. الكل متساوون بالقيمة من حيث الديانة. أما في السياسة فالحكم للأكثرية⁷.
على هذا، وبموجب النظام الديموقراطي، فإن الحكم للمسلمين على "كل" لبنان وليس على جزء منه. فكيف يتنازلون عنه؟ الأكثرية العددية "المفترضة" تجيز لهم تولي الحكم. لكن الأكثرية إياها لا تجيز للقبارصة اليونانيين تولي الحكم في جزيرتهم.

الأخوة ودار الاسلام

يجدر الانتباه الى ناحيتين:

الاولى، أن القرآن لم يتضمن شكلاً معيناً محددًا للدولة. فقد أعطى الخطوط العامة لها، وترك للمؤمنين فيما بعد تطبيقها على نحو لا يخالف تلك الخطوط. والثانية، أن الاسلام لم يأمر صراحة بوجود إنشاء دولة واحدة شاملة لجميع المسلمين. كما لم يمنع ذلك البتة. المهم أن تكون الدولة الاسلامية، والحاكم مسلماً. لقد اعتبر القرآن المؤمنين جميعاً أخوة. "إنما المؤمنون اخوة" (الحجرات 10). واجبهم أن يتضامنوا ويتعاونوا لما فيه خيرهم وخير دينهم. ومن الواجب اصلاح ذات البين بينهم إن هم اختلفوا.

يقول أبو الأعلى المودودي، وهو باكستاني: "أليس الأساس الذي أقيم عليه نظام الاتحاد والاجتماع في الاسلام، هو أن من آمن بالقرآن ورسالة محمد، هو مسلم وأن المسلمين كلهم أفراد أمة واحدة أو أعضاء جسد واحد، إذا اشتكى واحد منهم تداعى سائر أعضائه بالسهر والحمى...؟"⁸

على هذا، فإن مفهوم الوطن - وهو المرتكز الأساسي لبناء أي وطن - غير وارد في الاسلام. فمن القواعد العامة التي نادى بها رسول الإسلام "أن الولاء للأمة يحل محل الولاء للقبيلة"⁹. والأمة هي جماعة المسلمين حيثما حطت رحالها. وهذه القاعدة تفسر كيف أن المسلم اللبناني يطلق النار على الجيش اللبناني انتصاراً للفلسطيني المعتدي والذي يعتبره المسيحي اللبناني لاجئاً وغريباً. ذلك "أن الأخوة الدينية هي أساس النظام الاجتماعي"¹⁰، كما أنها تفسر كيف أن المسلم يؤثر استعمال عبارة "دار الاسلام" أو "دار السلام" وهي ما يساس من بلدان بموجب الشريعة الاسلامية¹¹.

وكتب عبد الرحمن عزام باشا، الأمين العام سابقاً لجامعة الدول العربية، في كتابه، "الرسالة الخالدة"، يقول: "فالمؤمنون في جميع أطراف الأرض إخوان لا تفرقهم الاوطان ولا العصبية ولا المذاهب ولا المنافع ولا الخوف ولا المنعة ولا العبودية ولا سبب من الاسباب. للمسلم حق الأخوة على المسلم أينما حلّ وأينما كانت

⁷ من مقابلة مع السيد تيودور هنف عام 1970 نشرت في أطروحة الدكتوراه التي كان يعدها السيد هنف. ذكرت في كراس: "لبنان الكبير مأساة نصف قرن"، القضية اللبنانية، ص 13

⁸ أبو الأعلى المودودي: الحضارة الاسلامية، أسسها ومبادئها، ترجمة محمد عاصم الحداد، دار العربية، الطبعة الثانية، ص 199،

⁹ صبحي الصالح: النظم الاسلامية، الطبعة الثانية، عام 1868، دار العلم للملايين، ص 255

¹⁰ المصدر السابق

¹¹ دائرة المعارف الاسلامية، 130/2 - 131

الدار. فلا جنسية غير الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة أن: لا اله إلا الله وأن محمدا رسوله". ثم يقول: "فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية، فهو يمتد مع العقيدة بل هو في الحقيقة وطن معنوي كما أن الدين أمر معنوي... والمسلم أخو المسلم أينما كان، جاوره أم تباعدت به الأرض، والمسلم أينما حل في دولة اسلامية فقد حلّ في وطنه..."¹²

إن هذا الارتباط العضوي بين الدين والدنيا في الاسلام والذي كان نظام "أهل الذمة" واحدا من نتائجه المنطقية، لا يمكن إلا أن يثير ردة فعل عكسية، أو ردات فعل من غير نوع وعلى غير سعيد، من قبل الذين عانوا منه.

وهذا ما جرى في لبنان إبتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فضلا عن ردات فعل سابقة، في حقب عديدة سابقة، كان لكل منها ظروفها التاريخية وأساليبها الخاصة في المعالجة.

فمع انتشار الافكار الثورية الاوروبية في لبنان عن طريق مدارس الاساليات المسيحية وبعثاتها الثقافية والتبشيرية،

ومع ترداد أصداء التدخل الاوروبي في شؤون السلطنة العثمانية بهدف حماية الاقليات المسيحية، وأصداء تلملم المسيحيين في أوروبا العثمانية وانتفاضتهم،

بدأ تحرك نخبة من "أهل الذمة" في لبنان لتحرير الواقع المجتمعي في المشرق الاسلامي من كل ما يتعارض ومبادئ الحرية والمساواة والأخوة والعدالة... وسلكت من أجل ذلك سبيلا إيجابيا يرتكز على "وعي الذات" وتحريرها من الداخل. فكانت "العروبة"، في بادىء الأمر.

ولكن...